تطور اللغة العربية منذ بداية العصر الحديث الى مرحلة انشاء المجامع اللغوية(١)

محمد خلف الله أحمد *

شهدت اللغة العربية فى تاريخها الطويل حتى اليوم مرحلتين رئيسيتين من التطور .

إحداهما : مرحلة ازدهار الحضارة العربية الإسلامية ، وامتدادها شرقا وغربا فى القرون الهجرية الأولى من تاريخ الإسلام .

والثانية : مرحلة النهضة العربية الحديثة التى بدأت مع القرن التاسع عشر ، عقب عصر من الضعف والركود فى حياة العالم العربى ، وهى المرحلة التى شهدنا ولا نزال نشهد مظاهرها وآثارها فى تطورنا السياسى والثقافى والاجتماعى والاقتصادى فى القرن الحاضر .

والعوامل والأجهزة التى حدث ويحدث من خلالها التطور فى المرحلتين تتشابه وتفترق من وجوه : ففى المرحلة الأولى شهدت الجزيرة العربية ميلاد دين سماوى جديد ، يحمل معه رسالة العقيدة الصافية ، والأخوة الشاملة ، والإصلاح الاجتماعى ، والقوة السياسية ، والازدهار الفكرى . وقد اتخذ

(*) رئيس قسم البحوث والدراسات الأدبية واللغوية بالمعهد .

(١) لمزيد من التفصيل فى موضوع هـذا البحث راجع كتاب « معالم التطور الحديث فى اللغة العربية وآدابها » — محمد خلف الله أحمد (ج ١ مصر فى القرن التاسع عشر ، القاهرة ١٩٦١) .

هذا الدين من العرب حملة لرايته، ومن لغتهم لسانا لدعوته ، فسارت العربية معه حيثما سار، واتسعت باتساع مجتمعه وحضارته، واتصلت عن طريق حركة ترجمة واسعة بالثقافات القديمة التى دخلت مجتمعاتها فى حوزته ، وانطلقت العقول فى هذا المجتمع الواسع من عقالها ، جريا وراء المعرفة ، وبحثا عن المجهول ، وتعبيراً عن أسرار الحياة ومظاهر الجمال فى هذا الكون ، فكان من كل أولئك ذلك التراث الذى شارك مواطنو العالم العربى والإسلامى — على اختلاف نحلهم وأجناسهم — فى تنمية ذخائره ، ممثلة فى الإنتاج الأدبى واللغوى ، والتأليف الفلسفى والعلمى فى مختلف ضروب المعرفة التى وصل اليها العالم حينذاك . وكان من الطبيعى والضرورى أن يعنى العلماء إذ ذاك بلغة هذا التراث الخصب الواسع ، ويبذلوا من الجهد فى جمعها ودراستها والحفاظ عليها ما لم تحظ بمثله — على ما نعلم — لغة من لغات الإنسانة الكبرى .

وإذا كان العالم العربى والإسلامى فى عصر ضعفه وركوده لم يضف كثيراً لهذا التراث الضخم ، فانه ظل قواما عليه ، مشغولا بمدارسته ، حارسا لمخائره وكنوزه ، إلا ما تسلل منها فى غفلة من حراسه إلى مكتبات العالم الحديث فى مطلع العصر الحاضر ، حيث يقوم الآن شاهداً على عبقرية هذه الأمة ، وعلى ما قدمت للفكر البشرى من أياد خالدة على الزمن .

تمثلت أهم مظاهر التطور اللغوى — خلال تلك المرحلة الأولى من ازدهار الحضارة العربية — فى جمع اللغة وتراثها الأدبى ، وفى إعطاء كثير من ألفاظها مدلولات جديدة من طريق العرف والاصطلاح ، وميز غير الفصيح من الفصيح من وجوه استعمالاتها ، ووضع القواعد والضوابط لأساليبها ، وزيادة قدرتها على التعبير من طريق الاستعانة بطائفة من الكلمات الدخيلة والمولدة ، وتسجيل ثروتها من الألفاظ مع توضيح دلالاتها فى معاجم : منها الصغير المتخصص ، والوسيط ، والكبير ذه الطابع الموسوعى ، والتنبيه على الأوهام ، الأخطاء التى يقع فيها بعض كتابها ، والتأليف فى نحوها واشتقاقها

وفقهها وخصائصها ، وفصيحها وغريبها ومقاييسها ، وفى الفروق اللغوية والألفاظ الكتابية ، وما إلى ذلك من ضروب البحث والتوجيه اللغوى .

ومما يسترعى النظر هنا أن اللغة العربية استطاعت — بعبقريتها ومرونتها وقابليتها للنمو الذاتى — أن تُعنى بمطالب تلك الحضارة العالمية الواسعة فى علومها النقلية والعقلية ، وفى تشريعها وأدبها وفلسفتها ، وفيما نقلته وتقبلته من تراث الأمم القديمة ، دون أن تضطر إلى الإكثار من العناصر الدخيلة . وهذه من النواحى التى تفترق فيها المرحلة القديمة من المرحلة الحديثة من التطور .

ونستطيع أن نكون فكرة عن سعة قاموس اللغة العربية إذا تذكرنا أن « مجد الدين الفيروزابادى » (٧٢٩ — ٨١٧ هـ) حين أراد أن يصنف معجما لغويا شاملا يضم ما أثبته السابقون عليه « كابن سيده » فى « محكمه » ، و« الصغانى » فى « عبابه » ، وما امتلأ به وطابه من المعارف اللغوية ، قدر أنه سيجىء فى ستين سفراً ، ولكنه بعد أن قطع شوطا فيه عدل عنه استجابة لما طُلب اليه — إلى قاموس وجيز ، محذوف الشواهد ، مطروح الزوائد ، معرب عن الفُصح والشوارد ، أسماه « القاموس المحيط » جمع فيه ستين ألف مادة .

كذلك نستطيع أن نكون فكرة تقريبية عن العناصر الدخيلة التى وجدت طريقها إلى اللغة العربية فى عصورها الأولى إذا رجعنا إلى كتاب من أهم ما ألف فى ذلك الموضوع وهو « المعرَّب » للجواليقى (الذى عاش فى القرن الخامس الهجرى) ، فهو لا يحتوى أكثر من ألفى كلمة منها طائفة يظن أن أصلها عربى غير دخيل .

* * *

أما التطور الثانى الكبير للغة العربية فيبدأ مع بدء التاريخ الحديث لأمة العرب ، وقد اصطلح مؤرخونا على عد القرن التاسع عشر بداية لذلك التاريخ ، ففيه أخذ العالم العربى يستيقظ ، ويستعيد مقومات شخصيته ، ويحيى مادرس

من معالم حضارته ، وينشد لنفسه مكانا بين الأمم الحديثة التى أخذت بأسباب العلم والمدنية ، ويصلح ما اضطرب من أساليب تفكيره وظواهر حياته الاجتماعية ، ويصل ما انقطع من وسائل التواصل بينه وبين العالم الخارجى ، ويحاول أن يشارك فى صنع التاريخ الحديث للبشرية .

هذه المرحلة الحديثة من الكفاح والترقب والإصلاح ، والأخذ بأسباب النهوض والتحفز ، ألقت على اللغة العربية أعباء ومسئوليات ، واقتضتها أن تتطور لتواكب هذا الزحف الحضارى الجديد للأمة العربية ، ومما زاد فى هذه الأعباء أن العرب حين بدأوا يقظتهم الحديثة وجدوا زمام الحياة والعلم والاختراع والقوة فى أيد أجنبية عنهم ، واضطروا — لكى يلحقوا بالركب — أن يأخذوا أنفسهم بأساليب الفكر الحديث — وعلى الأخص فى العلم والتقنولوجيا، وأن يبذلوا من الجهد فى الترجمة من اللغات الأجنبية المعاصرة أضعاف ما بذل أسلافهم فى ترجمة التراث القديم ، وأن يشاركوا فى فنون من التعبير الأدبى لم ينهض بها العرب الأقدمون إبان ازدهار حضارتهم .

هذا بالإضافة إلى ما اقتضته طبيعة النهضة من احياء التراث العربى القديم ، ونشر ما لم يزل مخطوطا من ذخائره ، وتنمية الفصحى وتطويعها لمطالب الفكر والحياة معا .

واضح إذن أن بين ذينك التطورين الكبيرين شبها من وجوه كثيرة ، ولكنهما يفترقان كذلك من وجوه : ففى كليهما التفتح الحضارى ، والترجمة من الثقافات الأجنبية ، والاتساع فى نواحى الحياة الفكرية وطرائق التعبير . وفى كليهما استجابت اللغة لمطالب الحياة الفكرية واستطاعت — بأدواتها من مجاز واشتقاق ونقل — أن تعبر عن المعانى الجديدة ، وأن تكون لغة علم وفلسفة وأدب وفن وسياسة متطورة .

ولكن الموقف فى التطور الحديث جلب معه صعوبات أشد تعقيداً مما واجه التطور القديم . وكان من أوائل تلك الصعوبات مشكلة تدريس العلوم

الحديثة فى المدارس والمعاهد العربية ، وترجمة مراجعها من اللغات الأجنبية ، ومشكلات وضع الأسماء لمسميات الحضارة الحديثة ، ومشكلة الازدواج اللغوى بين الفصحى ولهجاتها المحلية ، ومشكلة المدى الذى يجوز للمعاصرين أن يصلوا اليه فى استحداث ما يحتاجون من الصيغ العربية ، ومشكلة رسم الأعلام الأجنبية القديمة والحديثة ، ومشكلة تيسير الكتابة العربية ، ومشكلة تجريد قواعد اللغة مما أثقلها من فلسفات التخريج والتقدير والتقنين الصارم ، وأخيراً مشكلة تطلع اللهجات المحلية إلى غزو بعض الميادين الحديثة فى الفن الأدبى .

إن محاولة التغلب على هذه الصعوبات وأمثالها ليست مقصورة على مرحلة دون أخرى من مراحل التطور الحديث ، ولكنها جزء من عملية التطور ذاتها ، شارك فيه الأفراد أولا — كل بمجهوده فى ميدانه ، ثم شاركت فيه هيئات ومدارس فكرية . وهى تؤلف الآن الميدان الرئيسى لعمل المجامع اللغوية فى البلاد العربية .

وإذا تابعنا سير التطور الحديث فى رحلته المستمرة منذ القرن الماضى أمكننا أن نحدد محاوره الرئيسية فى النواحى الآتية :

الأولى — حركة الترجمة إلى اللغة العربية : وهى الحركة التى بدأت مع بدء مقومات اليقظة العربية فى القرن التاسع عشر ونمو التعليم واتصال العالم العربى بالخارج ، وكان روادها من السوريين واللبنانيين والمصريين ، ثم ترعرعت على يد الشيخ الأزهرى « رفاعة » (١٨٧٣) وتلاميذه من خريجى مدرسة « الألسن » ، واستمرت فى جهود الأفراد والهيئات واللجان والمجالس والجامعات حتى نضجت وآتت — ولاتزال تؤتى — ثمارها فى الخمسين سنة الأخيرة .

والثانية — حركة إحياء الشعر العربى الكلاسيكى : على يد « البارودى » وما تلا ذلك من ظهور شعراء مجيدين فى مختلف البلاد العربية وبخاصة فى « مصر » و « لبنان » و « سورية » و « العراق » ، نظموا شعرهم على النماذج

والأساليب الكلاسيكية ، واستوحوا موضوعاته وصوره من تجارب الحياة العربية الحديثة وآمالها وآلامها ، وتحرروا فيه من أثقال الزخرف والصناعة المسرفة التى كانت طابع عصر الركود . وأفلح بعضهم — وكان رائدهم فى هذا « شوقى » — فى أن يتخذ من الشعر التمثيلى إضافة جديدة إلى ثروة الشعر العربى ، وفتح النقاد منهم ومن الأكاديميين آفاقا جديدة فى نقد الشعر الحديث أضافوا بها إلى تصوراتنا القديمة مفاهيم جديدة فى طبيعة الشعر ووحدة العمل الفنى والصلة بين شخصية الشاعر وشعره . وكان من بعض امتدادات هذا التطور أن ظهرت فى القرن الحاضر فى المُهاجَر الأمريكى وفى مختلف بلاد العروبة اتجاهات إلى تجديد موسيقا الشعر العربى ونظام قوافيه ، وطبيعة قاموسه وموضوعاته .

والثالثة — اتساع آفاق النثر العربى :

أولا : بما حدث من نشاط فى حركة التأليف والكتابة والخطابة فى مختلف نواحى الحياة القومية من تعليم وتثقيف عام وإصلاح ونضال سياسى .

وثانيا : بما جدّ على النثر أو بما فيه من فنون القصة والرواية والمسرحية وأدب الإعلام من الصحافة والإذاعة مسموعة ومرئية . وما صاحب كل ذلك من اتساع فى دائرة الجمهور القارىء أو المستمع لهذه الفنون التعبيرية ، وما ترتب على هذا الاتساع من تيسير فى لغة هذه الفنون وتعابيرها .

والرابعة — عناية العلماء العرب فى العصر الحديث بالتجديد فى دراسات اللغة والأدب والنقد والبلاغة ومشاركتهم ببحوثهم فى المؤتمرات الدولية وفى المجلات الأدبية والعلمية ، وازدياد عدد المتخصصين فى هذه الميادين من خريجى الجامعات وأعضاء المجامع اللغوية والعلمية .

وسنقف فى هذا البحث عند بعض الجهود الرائدة فى هذا الميدان وما كان لبعض المصلحين والمفكرين المحدثين — من مواقف واتجاهات فى شئون اللغة

العربية وتطويرها ، ومن دعوة فى أواخر القرن الماضى وأوائل الحاضر إلى إنشاء المجامع اللغوية .

ومن المتفق عليه أن الشيخ الأزهرى « رفاعة الطهطاوى » كان أول عالم عربى فى العصر الحديث واجه صعوبات الترجمة إلى العربية فى مختلف فروع الثقافة ، واختط لنفسه فيها خطة سار عليها ، وترك لنفسه ولتلاميذه فيها سجلا حافلا بجلائل الأعمال .

وليس من قصدنا هنا أن نؤرخ بالتفصيل لجهود « رفاعة » فى الترجمة ، ولكن حسبنا فى هذا المقام أن نشير إلى منهجه فيها وأن نبرز أول مشكلة حديثة فى تطورنا اللغوى أثارت — ولاتزال تثير أحيانا — نقاشا وجدلا بين المختصين !

اختير « رفاعة » فى الثلث الأول من القرن الماضى إماما لأول بعثة مصرية تعليمية إلى فرنسا ، وما هو إلا أن حط رحاله فى باريس وقطع شوطا فى تعلم الفرنسية حتى لفت أنظار أساتذته اليه بجده وتحصيله ونهمه إلى المعرفة ، فوجهوه إلى القراءة والدرس فى مختلف فروع الانسانيات ، وعلى الأخص فى الاجتماع والتاريخ القديم ، وأخذ هو يفكر فى ترجمة بعض الكتب التى يدرسها إلى اللغة العربية ، وعُنى بأن يكون لنفسه صورة عن الحياة والثقافة فى « فرنسا » ، وأن ينقل تلك الصورة إلى بنى قومه بعد عودته . وقد سجل انطباعاته فى كتاب سماه « تخليص الابريز فى تلخيص باريز » وصف فيه رحلته إلى أوربا ، وما صادف فى طريقه من غريب العادات وعجيب المناظر ، ومالاحظه أثناء إقامته فى فرنسا من أحوال الفرنسيين وأوضاع معايشهم وألوان معارفهم ، وما استطاع أن يحيط به من نظامهم السياسى والإدارى ، وأن يلم به من ثقافتهم العلمية والفنية . ويهمنا من الكتاب ما يكشف عنه من الصعوبات التى صادفها « رفاعة » فى التعبير عن المفاهيم الجديدة عليه وعلى اللغـــة العربية ، ومن الطريقة التى واجه بها تلك الصعوبات ، والتى

تتلخص فى أنه كان إذا وجد اللفظ العربى الفصيح المعبر عن المعنى استعماله وأخذ حريته فى تصاريفه واشتقاقاته ، فان لم يجده استعمل اللفظ العربى الدارج ، فاذا أعوزه الاثنان عرب اللفظ الأوربى واستعمله واشتق منه .

ومنذ عاد « رفاعة » إلى مصر سنة ١٨٣١ ، عهدت اليه الدولة بكثير من المهام والمسئوليات التثقيفية فى البلاد ، ومعظمها يتصل اتصالا مباشراً بحركة التطور الحديث فى اللغة العربية ، فقد تولى شئون الترجمة وتدريس بعض المواد باللغة العربية فى مدرسة الطب ، كما تولى مثل ذلك فى مدرسة المدفعية . ولم يلبث أن قدم إلى أولى الأمر مشروعا بانشاء مدرسة للألسن تقوم على تخريج المترجمين والمدرسين ، فافتتحت المدرسة فى سنة ١٨٣٥ وأخذت تنمو وتتسع فى أغراضها وأقسامها ، وقام « رفاعة » فى هذه المؤسسة الجديدة بدور المشرف والموجه والمشارك فى نشاط طلبتها وخريجيها من ترجمة وتأليف وتدريس ، ولاسيما فى قلم الترجمة الذى أنشىء فى المدرسة ليكون مركزاً للمتخرجين تتلاقى فيه جهودهم فى ترجمة العلوم والفنون بين مختلف اللغات من فرنسية وايطالية وتركية وعربية .

ومن تلك المهام التى تولاها اشرافه على تحرير مجلة « روضة المدارس المصرية » التى أنشأها « على مبارك » سنة ١٨٧٠ . وقد كتب رفاعة افتتاحية المجلة فى أول عدد صدر منها مبينا أنها ستكون أداة لنشر الرسالة الثقافية التى يضطلع بها « ديوان المدارس المصرية » ، وهى تعميم العلوم والمعارف وانتشار الفنون ، وستعمل على أن تكون فيها الفوائد المتنوعة والمسائل المتأصلة والمتفرعة أقرب تناولا للمطلع ، وأسهل مأخذا لمن يعانيها ، بقلم سهل العبارة ، وألفاظ فصيحة غير حوشية ولامتجشمة لصعب التراكيب .

أما منجزاته فى ترجمة نواح من الثقافات الأجنبية القديمة[1] فهى

---

(١) راجع : « الثقافات الأدبية القديمة وحركة الترجمة العربية فى القرن الماضى » . محمد خلف الله أحمد . بحث ألقى فى مؤتمر مجمع اللغة العربية السنوى ١٩٦٠/١٩٦١ ونشر فى أعماله .

تمثل أول لقاء للفكر العربى الحديث مع تلك الثقافات ، وتبرز بعض المشكلات اللغوية التى أخذت تظهر على مسرح الثقافة العربية الحديثة ، والتى وجهت اليها المجامع اللغوية العربية منذ أواخر القرن التاسع عشر شطراً كبيراً من جهدها وعنايتها .

وإذا كان « رفاعة » قد رضى لنفسه ولمدرسته المنهج الذى أشرنا اليه فى حل مشكلة المصطلحات الحديثة ، فان بعض معاصريه من المؤلفين والمفكرين لم يقرره عليه . ومن أبرز هؤلاء العالم الكاتب اللبنانى « أحمد فارس الشدياق » الذى ولد فى لبنان ١٨٠٤ . والذى نزح فى شبابه إلى « مصر » واتصل برفاعة فافسح له الرائد القاهرى مكانا فى تحرير « الوقائع المصرية » ، وهيأ له فرصة الاتصال ببعض شيوخ اللغة والأدب . وقد قام « الشدياق » بأسفار إلى مالطة ولندن وباريس وتونس والقسطنطينية . وفى سنة ١٨٦٠ أنشأ جريدة « الجوائب » التى ذاع صيتها شرقا وغربا . وله كتب ضمنها معلومات عن أسفاره ، وأخرى ضمنها دراساته وآراءه اللغوية : منها « الجاسوس على القاموس » ، و« الساق على الساق فيما هو الفارياق » . وكان ينشر فى جريدته أحيانا فصولا من كتبه فى شئون اللغة العربية من مثل : «منتهى العجب فى خصائص لغة العرب» و« سرّ الليال فى القلب والابدال » ، وفى هذه الفصول يرد على من يحاولون نسبة القصور إلى اللغة العربية ، وعلى أولئك الذين لايفتأون يحومون حول لغات الأعاجم ، ويقولون إن ألفاظ العرب مأخوذة منها ، ويتحدث عن محاسن اللغة العربية ،وهى عنده تنقسم قسمين : أحدهما يتعلق بطرق التعبير وحسن الأساليب عند ضم الكلام بعضه إلى بعض ، والثانى يتعلق بمفردات الألفاظ . ويعترف الشدياق بأن مفردات العربية غير تامة بالنظر إلى ما استُحدث بعد العرب من الفنون والصنائع ، مما لم يكن يخطر ببال الأولين ، وليس فى ذلك شين على العربية ، و « إنما الشين علينا الآن فى أن نستعير هذه الأسماء من اللغات الأجنبية، مع قدرتنا على صوغها من لغتنا . على أن أكثر هذه الأسماء هو من قبيل اسم المكان

أو الآلة ، وصوغ المكان والآلة فى العربية مطرد من كل فعل ثلاثى.. »
وهو يوجه نقداً إلى علماء المراحل الإسلامية الأولى من العرب المستعربين الذين بخسوا اللغة حقها ، فعدلوا عنها إلى اللغات العجمية من دون سبب موجب .. « فلو نشأ فى القرن الأول من الإسلام جمعية أدبية كما نرى الآن فى ممالك أوربا مما يعرف عندهم بلفظ « أكادمى» لما دخلت ألفاظ العجم فى لغتنا .. » ، وهناك وجه آخر لصوغ ألفاظ تسد مسد الألفاظ العجمية التى اضطررنا اليها وهوباب « النحت» ، وهو طريقة حسنة تكثر بها مواد اللغة وتتسع أساليبها ، ولها نظير فى اللغة اليونانية وسائر اللغات الافرنجية . وهو يخلص من هذا النقاش إلى رجاء يتجه به إلى رفاعة ومساعديه من محررى « روضة المدارس » ذلك « أن يتواطئوا من هذا الباب — أى باب النحت — على ألفاظ تغنينا عن الألفاظ العجمية التى أحوجتنا إلى استعمالها ، وذلك نحو « الكومسيون » و « الكونستيتيسيون » و « القونفراس » وما أشبه ذلك فان « مصر » مورد العلوم العربية ومصدرها ، وكلام مشايخها متبع فى جميع الأمصار ، فاذا قرروا طريقة لصوغ الألفاظ المنحوتة اقتدى بهم جميع الكتاب والمؤلفين . فالمرجو إذن من همة كتاب « الروضة » ولاسيما العالم المشهور « عزتلو رفاعة بك » أن يريحونا من الألفاظ العجمية أراحهم الله وأغناهم عن التعريب الذى هو أشد عذاب على من عاناه » .

هذا على مايبدو أول خلاف فى تاريخنا الحديث حول التعريب ، وحول وضع أسماء فى العربية للمسميات الحديثة . وهو خلاف ظل له صداه فى المجامع اللغوية التى أنشئت بعد ذلك والتى قطعت شوطا بعيداً فى التعريب — ولا سيما — فى المصطلحات العلمية والحضارية ، وان كانت لاتزال طائفة من المحافظين على نقاء اللغة تعارض التعريب وتدعو إلى الإفادة من الثروة المعجمية للغة العربية . ولايفوتنا أن نلحظ هنا فى كلام الشدياق واحدة من أوائل الإشارات إلى الأكاديميات وضرورتها فى المراحل الكبرى من التطور اللغـــوى .

وستصادفنا مثل هذه الإشارة عند علماء ومصلحين آخرين من رجال النصف الثانى من القرن التاسع عشر، كالإمام المصرى « الشيخ محمد عبده » الذى كانت معظم جهوده موجهة إلى الإصلاح الدينى والخلقى والتربوى واللغوى ، والذى كان لكتاباته أثر كبير فى زيادة ثروة اللغة العربية ، وتطوير أساليب الكتابة بها فى الاتجاه الصحيح ، وبعث روح من الحيوية والتجديد فى طرائق تعبير الفصحى ، وانتشالها مما علق بها — فى عصر ماقبل النهضة — من شوائب الزخرف والتكلف . وتعد جهوده فى هذا خطوة كبيرة مثمرة بعد الخطوة التى خطاها « رفاعة » ومعاصروه فى توسيع اللغة العربيـــة وتطويرها من طريق الترجمة عن الفكر الغربى . كانت أساليب الكتابة فى مصر تكاد تنحصر — كما يقول الشيخ محمدعبده فى نوعين (كلاهما يمجه الذوق وتنكره لغة العرب) : الأول ماكان مستعملا فى مصالح الحكومة وما يشبهها وهو ضرب من ضروب التأليف بين الكلمات رثٌّ خبيث غير مفهوم ، ولايمكن رده إلى لغة من لغات العالم ، لافى صورته ولافى مادته ؛ والنوع الثانى ماكان يستعمله الأدباء والمتخرجون (على نظام التعليم القديم) وهو ماكان يراعى فيه السجع وان كان باردا ، وتلاحظ فيه الفواصل وأنواع الجناس وان كان رديئا فى الذوق ، بعيداً عن الفهم ، ثقيلا على السمع ، غير مؤد للمعنى المقصود ولامنطبق على آداب اللغة العربية ، وهو وان كان يمكن رده إلى أصول اللغة العربية فى صورته لكنه لايعد من أساليبها المرضية عند أهلها » . وكان كثير الشكوى والتبرم من سوء أسلوب الكتب التى ألفت فى العصور المتأخرة وضعف لغتها ، وكان يفضل عليها كتب المتقدمين . ولهذا حرص على أن يدير دروسه فى مدرسة « دار العلوم » وفى « الأزهر » فى أواخر القرن التاسع عشر حول طائفة من أمهات الكتب العربية القديمة التى لم تكن مألوفة فى الدراسات التقليدية للأزهر « كمقدمة ابن خلدون » فى الأدب والتاريخ ، و« أسرار البلاغة » و« دلائل الإعجاز » لعبد القاهر الجرجانى فى النقد والبلاغة ، و« نهج البلاغة » للإمام على ، فى صناعة

الإنشاء ، و« ديوان الحماسة » فى النصوص الشعرية . وقام وهو فى «بيروت» بمحاولة موفقة فى التأليف فى علم التوحيد على طريقة تجمع بين أصالة المتقدمين وطرائق الفكر الحديث فى فهم الدين ، فألف « رسالة التوحيد » وجعلها محور دروسه فى مدارس « المقاصد الإسلامية » وفى الأزهر بعد رجوعه . وكان « الإمام » يرى أن « اللغة العربية فى حاجة إلى إصلاح آخر فوق إصلاح التعليم لفنونها وآدابها واتقان الكتابة والخطابة فيها ، وهو مافعله الفرنسيس وغيرهم من شعوب العالم فى أوربة من تأليف المجامع لوضع المعاجم اللغوية وتاريخ تطور اللغة ، ومادخل فيها من اصطلاح ومعرب وغيره ، والمعاجم العلمية وفلسفة البيان والانتقاد وغير ذلك .. » وكان مما قرره إذ ذاك أن هذا النوع من الإصلاح لايرجى لمصر بلوغ شأو الأوربيين فيه إلا باشتغال جيدّى مدة خمسين سنة .

* * *

تسرع قافلة التطور اللغوى والأدبى فى العالم العربى سيرها فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر وأوائل العشرين ، وتتنوع روافد هذا التطور وتياراته ، فيظهر على مسرح الشعر العربى محمود سامى البارودى(١٩٠٤) الذى اتجه بفطرته الشاعرة إلى الشعر العربى الأصيل ينهل من حياضه ، ويبحث عن دواوين فحوله — وعلى الأخص فى مكتبات الآستانة فى المدة التى قضاها هناك ، وينسخ من مخطوطاته ، ويعيش فى صحبة الشوامخ من شعراء العصر العباسى ، حتى أصبحت المقدرة على التعبير الأصيل طبيعة فيه .

وقد ظهرت ثمرة هذا فى ناحيتين رئيسيتين كان لكلتيهما أثر فى التطور الحديث للأدب العربى واللغة العربية :

الأولى : أن البارودى — وقد عاصر فى حياة مصر مرحلة حافلة بالمد والجزر — وشارك فى أحداثها ومعاركها — جعل من شعره سجلا صادقا لتجاربه ومشاعره ، وأحداث حياته فى مراحلها المختلفة ، وتصوير بعض

المشاهد التى تركت آثارها فى نفسه ، سواء أكانت مناظر طبيعية ومعارك حربية ، أم صلات بين الناس وتقلباً فى الحظوظ ، وعبرا تجىء بها الأيام ، وأرزاء تدخرها لعظماء الرجال وأحرار النفوس . وبهذا سن « البارودى » للشعر العربى الحديث سنة الصدق الفنى ، وعبّد الطريق لشعراء العربية — وعلى الأخص فى مصر ولبنان وسورية والعراق — فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل العشرين ، ليربطوا بين الشعر والحياة العربية الحديثة ، وليكونوا ترجمان أمتهم فى كفاحها وآمالها ، وليرتادوا آفاقا جديدة فى الفن الشعرى ، وليصلوا بين حاضر اللغة وماضيها الذهبى فى أساليب التعبير . وهذه هى المرحلة التى برز فيها اسماعيل صبرى وشوقى ومطران وحافظ والزهاوى والرصافى والكاظمى وغيرهم فى الوطن العربى .

والناحية الثانية التى أثر بها البارودى فى تطور الشعر العربى ، وفى تطور اللغة الأدبية تبعا لذلك ، أنه اختار مجموعة من شعر الحضارة العربية فى أزهى عصورها — من القرن الثانى الهجرى إلى السابع — تبلغ الأربعين ألف بيت لثلاثين من فحول الشعراء فى مختلف مناحى القول من أدب ومديح ورثاء ووصف ونسيب وهجاء وزهد ، ووضع هذه المجموعة فى متناول المعنيين بالثقافة العربية ، فقرب بذلك بين المحدثين ومصادر ثروتهم الشعرية ، ووفر عليهم مئونة الرجوع إلى دواوين لا يزال بعضها مخطوطا إلى اليوم . وكان صنيع البارودى فى هذا شبيها بصنيع الشاعر العباسى « أبى تمام » فيما اختار من « ديوان الحماسة » .

وواكبت الميادين الأخرى سير الشعر فى تطوره فأخذ التأليف الاجتماعى والتاريخى والتعليمى والقصصى ينمو على يد أمثال على مبارك (ت١٨٩٣) ، وعبد الله فكرى (ت١٨٨٩) ومحمد عبده (ت١٩٠٥) وقاسم أمين (ت ١٩٠٨) وغيرهم ، كما أخذت تظهر الكتب والدراسات الجادة فى علوم اللغة العربية وآدابها وفى مناقشة بعض قضايا التطور الحديث.

ومن معالم ذلك النشاط ما بذله بعض علماء العروبة فى القرن التاسع عشر وأوائل العشرين من جهود ، كالذى قام به بطرس البستانى (١٨١٩ — ١٨٨٣) ، إذ أخرج فى سنة ١٨٦٧ معجم « محيط المحيط » فى جزءين ضمنهما — إلى جانب ما استخلصه من الفيروزابادى — بعض المصطلحات العلمية التى جدت فى العربية ، كما أخرج عدة أجزاء من دائرة معارف حديثة ، وما قام به آل « اليازجى » من تأليف الكتب فى اللغة والنحو والصرف وانشاء المجلات وتحريرها ، وما قام به بعض الباحثين — من أمثال « حفنى ناصف » (ت١٩١٩) « وعبد الله فكرى وأمين فكرى » (١٨٩٩) وحمزة فتح الله (ت١٩١٨) « وأحمد شوقى » (ت ١٩٣٣) من نقل بعض الجهود العلمية العربية فى ميادين اللغة والأدب وتحقيق التراث إلى مؤتمرات المستشرقين الدولية فى « ستوكهولم وفيينا وجنيف والجزائر » وغيرها من العواصم العالمية .

ومن معالم ذلك النشاط فى ميدان الدراسات العربية الكتاب الرائد الذى ألفه الشيخ حسين المرصفى (ت١٨٩٠) بعنوان « الوسيلة الأدبية لعلوم العربية » وهو كتاب يجمع مادة دروسه التى ألقاها فى مدرسة دار العلوم (التى أنشئت عام ١٨٧١) فى المراحل الأولى من حياتها . ولهذا الكتاب قيمته فى تاريخ التطور الأدبى واللغوى فى العالم العربى الحديث ، فقد كان أول كتاب ألف فى القرن التاسع عشر فى علوم العربية — على منهج حديث يجمع بين الإحاطة والعمق والأسلوب المباشر والرجوع إلى المصادر الأصيلة ، وتحاشى الخلاف والمناقشات الشكلية ، والعناية بحشد النماذج الكثيرة من الأدب الرصين ونقدها والتعليق عليها ، وإثارة مسائل مهمة فى تاريخ الأدب واللغة وتطور علوم العربية ، ونقد مناهج الدراسة فى العصور المتأخرة ، وتوجيه الطلاب — الذين يُعَدّون لتدريس اللغة والأدب فى المدارس — إلى كيفية التفريق بين الوسائل والغايات ، والأسباب والمقاصد ، والعمل على تربية أذواقهم وملكاتهم الأدبية واللغوية قبل شغلهم بتحصيل القواعد ودراسة الآراء والنظريات . وإذا كان « المرصفى » قد نهج هذا النهج فى عرض علوم العربية ، فإن أخا

له من أساتذة دار العلوم فى تلك المرحلة (وهو حمزه فتح الله) اتجه إلى دراسة النصوص والثقافة الأدبية مع عناية فائقة باللغة وأوضاعها وضمن ذلك كتابا فى جزءين بعنوان « المواهب الفتحية فى علوم اللغة العربية » . وقد بين المؤلف فى مقدمة كتابه أنه التزم فى اختيار ما ينقله — من كتب أوخطب أو منظوم أومنثور — أن يكون للاستشهاد على مسائل من العلوم العربية أو غرض من أغراضها ، وأن يشرح المهم من ألفاظه اللغوية ، وما يحتوى عليه من الأمثال ، وما يتضمنه من العادات ، وما يطابقها فى عصره ، هذا مع تحرى سهولة التعبير ، وعزو كل قول إلى قائله ، وذكر الوفيات أو زمن الوجود ، والتنبيه على ما يعثر عليه من الخطأ فى بعض الكتب العلمية مع بيان الصواب فيه .

وقد خطا التأليف فى تاريخ الآداب العربية فى مطلع القرن الحاضر خطوة موفقة على يد بعض العلماء العرب من أمثال « حفنى ناصف » فى محاضراته فى الجامعة المصرية الأهلية فى ١٩٠٩-١٩١٠ فى موضوع « تاريخ الأدب أوحياة اللغة العربية » وجورجى زيدان (ت١٩١٤) فى كتابه « تاريخ الآداب العربية » فى أربعة مجلدات . ومصطفى صادق الرافعى (ت١٩٣٧) فى كتابه « آداب العرب » فى ثلاثة مجلدات .

ومن العوامل التى أثرت فى التطور الحديث للغة العربية ودفعت حركته إلى الأمام فى مطالع القرن الحاضر نهضة الأدب القصصى فى مختلف أشكاله من قصة ورواية ومسرحية نثرية أوشعرية ، وظهور الصحافة على مسرح الحياة العربية الفكرية منذ الثلث الأخير من القرن التاسع عشر . وليس هنا مجال التأريخ لهذين العاملين ولكن هناك فى كل منهما معالم ذات صلة وثيقة بالتطور اللغوى : منها ترجمة «سليمان البستانى» (١٨٥٦ — ١٩٢٥) «لألياذة هوميروس » شعراً عربيا — وللمرة الأولى فى تاريخ الفكر العربى — وقد بدأ « البستانى » ترجمته هذه وهو فى القاهرة سنة ١٨٨٧ وانتهى منها سنة١٩٠٢ وتم طبعها سنة ١٩٠٤ . وقد تسلح البستانى لهذا العمل بأساحته الضرورية :

من معرفة طائفة من اللغات الغربية الحديثة كالانجليزية والفرنسية والإيطالية ، ومن دراسة اللغة اليونانية دراسة متعمقة . ومن هذه المعالم الروايات التاريخية الرائدة التى أخرجها « جورجى زيدان » ، والرواية الاجتماعية (زينب) التى ألفها « هيكل » ، والشعر التمثيلى الذى أرسى « شوقى » دعائمه فى الأدب العربى الحديث ؛ ثم ماتلا تلك البواكير من نهضة فى الفنون الأدبية[1] على يد الكتاب والشعراء والخطباء والنقاد الذين ازدهرت بهم حياتنا الثقافية والفكرية فى النصف الأول من القرن الحاضر . أما الصحافة فقد قامت بدور كبير فى نشر الوعى اللغوى ، وفى مناقشة المشكلات الخاصة بالتطور اللغوى ، وفى افساح المجال لطائفة من الباحثين لنشر آرائهم ودراساتهم فى هذا الميدان . وقد أشرنا سابقا إلى مجلة « روضة المدارس » التى كان يشرف على تحريرها « رفاعة » ، وجريدة « الجوائب » لصاحبها « الشدياق » ، ونضيف هنا من المرحلة الرائدة « المقتطف » لآل صروف ، و « الهلال » لجورجى زيدان ، و « الأستاذ » « لعبد الله النديم » ، و « البيان » للشيخ « ابراهيم اليازجى » ، و « الجريدة » التى كان يشرف على تحريرها « أحمد لطفى السيد » . ثم تتسع الحركة الصحافية فى الستين سنة الأخيرة باتساع الحياة القومية فى كفاحها ونهضتها الشاملة ، ويستمد الفكر واللغة زادا جديداً مما كان ينشر فيها ويدون على صفحاتها من نقاش ونقد .

وفى معرض ذكر المعالم والعوامل فى تطور اللغة فى العصر الحديث لابد أن تحتل الحركة الجامعية والتعليمية بينها مكانا بارزا ، فمنذ افتتاح الجامعة المصرية الأهلية فى سنة ١٩٠٨ بدأت دراسات اللغة والأدب عهداً جديداً من التخصص والتعمق والإنتاج الوفير ، ووُضعت حياة اللغة وظواهرها وتطورها موضع الدرس والتحليل والمقارنة ، واتصل الجهد العلمى الحديث

---

(١) راجع : « أثر القاهرة فى نهضة اللغة العربيـــة وآدابها فى القرن العشرين » . محمد خلف الله أحمد . (بحث ألقى فى الندوة العالمية للتاريخ الألفى للقاهرة ، ونشر فى أعمالها) .

بجهود علماء العربية فى عصور الازدهار السابقة ، وأصبحت كتب التراث بعد تحقيقها ونشرها فى متناول الباحثين والمتخصصين ، وكان لكل ذلك أثره فى دعم الجهود المجمعية فى تنمية اللغة وتطويرها .

* * *

فى هذا العرض السريع وقفنا عند بعض المعالم والعوامل الهامة فى التطور الحديث للغة العربية ، وأبرزنا بعض المشكلات التى واجهها ذلك التطور ، وأشرنا إلى ما تطلع إليه بعض علماء العروبة فى القرن الماضى من انشاء المجامع لتتولى توجيه التطور اللغوى وتحاول التغلب على مشكلاته . ولقد كان من أثر هذا أن بدأت المحاولات لإنشاء المجامع فى بعض أقطار العروبة — فى العقدين الأخيرين من القرن الماضى ، فأنشىء « المجمع العلمى الشرقى» فى بيروت سنة ١٨٨٢ ، وكان من أعضائه « ابراهيم اليازجى» وأصحاب « المقتطف» «وجورجى زيدان» «وسليم البستانى » وغيرهم (انظر « الهلال » مجلد ٢٦ — يولية (تموز) ١٩١٨) ولم يطل بقاؤه .

وفى مايو (آيار)سنة ١٨٩٢ اجتمع فى القاهرة نخبة من العلماء المصريين و« نظروا فى المسألة التى شعر أبناء اللغة العربية بالحاجة إليها منذ بضع سنين ، وهى إنشاء مجمع لغوى مثل الأكاديمية الفرنسية ، ينظر فى اللغة العربية وما تحتاج إليه فى هذا العصر عصر التقدم فى العلوم والفنون ، وأجمع رأيهم على إنشاء هذا المجمع ، وانتخبوا حضرة الحسيب النسيب السيد « محمد توفيق البكرى » نقيب السادة الأشراف رئيسا له ، وحضرة العالمين الفاضلين الشيخ « محمد عبده » والشيخ « الشنقيطى» نائبى رئيس ، وحضرة الفاضل السيد « محمد بيرم » كاتبا، وسيكون أعضاء هذا المجمع خمسين عضوا فقط» .

(المقتطف — يونيه (حزيران)١٨٩٣)

وقد أنشىء وأخذ يوالى اجتماعاته . وكان من أوائل ما اتجهت إليه جهوده إقرار طائفة من الألفاظ العربية تقوم مقام الألفاظ الدخيلة التى تطرقت

إلينا من اللغات الأجنبية . وقد حرص أعضاء المجمع فى بحوثهم وقراراتهم أن يثبتوا براءة اللغة العربية من العجز والقصور ، وأن الباحث فيها لايعييه أن يجد من الألفاظ ما يعبر عن مستحدثات الحضارة ، وأنه إذا أراد أحد كتاب اللغة كتابة غير مشوبة بالدخيل استطاع أن يجد مندوحة فى الألفاظ التى يسبك بها معانيه مما ينتقيه المجمع وينشره ، أو مما يعثر عليه هو بنفسه ، كما حرصوا أن يزيلوا من الأذهان ماتوهمه بعض الناس عن أن المجمع يقصد إلى حمل جميع الطبقات على أن يستعملوا فى أحاديثهم وكتابتهم ما يستخرجه من ألفاظ . وقد عنيت الصحف والمجلات إذ ذاك بمتابعة بحوث المجمع وقراراته ونشرها وبمناقشتها والتعقيب عليها . وكان من أبرزها فى هذا مجلة «الهلال» لصاحبها جورجى زيدان ، و« الأستاذ » للسيد عبد الله الندم ، والبيـــان (للشيخ ابراهيم اليازجى) .

ففى الجلسة الخامسة — مثلا — تلا رئيس المجمع خطابا موضوعه : « الوفاقات فى العادات » أراد به ذكر بعض العادات والأحوال التى اتفق فيها العرب فى الجاهلية والفرنج الآن : كالتهادى بالزهر والرياحين فى أيام المواسم والأعياد ، ورفع ما على رءوسهم للتعظيم . وألقى « محمد (بك) المويلحى » بحثا مطولا فى بيان بعض أغراض المجمع ، ثم عرض عشر كلمات دخيلة واقترح ما يقابلها فى اللغة العربية (مثل : البلكون ويقابلها الطُّنُف ، ومركب التوربين ويقابلها الحراقة ، وكارت فيزيت ويقابلها بطاقات الزيارة ، والبالطو ويقابله العاطف أو المعطف ...) وفى الجلسة السادسة عشرة اقترحت كلمات عربية مكان ألفاظ دخيلة « مثل مرحى (برافو) ومدره (أفوكاتو) والمسرة (التليفون) والقفاز (الجوانتى) » ..

(مجلة الهلال عدد أول فبراير (شباط) ١٨٩٣ ص ٣٠٩ — ٣١٥)

وكانت قرارات المجمع كثيراً ما تثير نقاشا بين الصحف بعضها وبعض : فقد اعترضت الهلال مثلا على اقتراح المجمع لفظ « مدره » فى مقابل (أفوكاتو)

وفضلت لفظ « محام » ، على حين أيدت الأستاذ رأى المجمع . واتفقت « الهلال » و « الأستاذ » على تفضيل « شرفة » على « طنف » فى مقابل (بلكونه) واختلفت الصحيفتان فى شأن (نمرو) الافرنجية التى اقترح لها المجمع لفظ « نيمْرة » ، ففضلت الأستاذ كلمة « عدد » على حين فضلت الهلال لفظ « رَقَم » .

(الهلال ، أبريل (نيسان) ١٨٩٣ ، ص ٣٥٣ — ٣٥٩) .

أما فيما يتعلق بأغراض المجمع وأعماله فقد رأت « الأستاذ » أن تكون عامة فى كل ما يختص بالفنون العربية : من اللغة وما يتعلق بها كالصرف والنحو والبيان والبديع والمنطق والتاريخ وتقويم البلدان والترجمة والرياضيات ، بحيث تقرر الحكومة اعتماده لتحيل عليه النظر فى المؤلفات الجديدة قبل طبعها .. وربما اتسع نطاقه فأحيل عليه امتحان أناس فى فنون مخصوصة لنيل الشهادة العلمية » ..

وذهبت « الهلال » إلى « أن اقتصار المجمع فى الأمور اللغوية أقرب إلى الغرض المقصود وأسرع نتيجة » . ودعت المجلة الحكومة بأن تؤيد المجمع رسميا ، كما ذكّرت الأعضاء المصريين « أن لهم فى أنحاء الشام والعراق والغرب وغيرها شركاء فى هذه اللغة يهمهم منها مايهمهم ، وأن بينهم رجالا قد انقطعوا إلى اتقان علومها أعواما طوالا ساهرين على تعزيزها ورفعة منزلتها ، فإذا اقترحوا على جماعة منهم أن يشاركوهم فى خدمتهم هذه إما بالمراسلة وإما باستقدامهم على يد الحكومة السنية كان ذلك أدعى إلى اجتماع الأيدى » . ورأت « الهلال » كما رأت « الأستاذ » — أن يعرض المجمع مايقرره على العلماء وأرباب الأقلام بنشره فى الجرائد المحلية ، أو فى نشرة خاصة به ، ويضرب أجلا للمناقشين شهراً أو أكثر ، حتى إذا دوّن كل من هؤلاء رأيه وملاحظاته ينظر المجمع فيها ، فإذا رأى الرجوع إلى شىء منها وإلا فله الرأى ، كماهو الحال فى الحكومة المصرية ومجلس شورى القوانين » .

وكانت أعمال المجمع كذلك باعثا على نشر مجموعة من البحوث فى الصحف عن اللغة وظواهرها .فقد نشرت« الهلال »(عدد مايو (آيار)١٨٩٣ص٤٠٢— ٤١٢) بحثا بعنوان :« تاريخ اللغة العربية والألفاظ المولدة والدخيلة فيها » وكان ذلك على أثر ما انتقاه المجمع من الألفاظ لتقوم مقام بعض الألفاظ الدخيلة أو المولدة ، ونشرت مجلة « البيان » (التى ظهر أول عدد منها فى أول مارس(آذار)١٨٩٧)سلسلة من المقالات بعنوان : « اللغةوالعصر» أرخت فيها للمجمع وأعماله ، وأشارت إلى أوجه التقصير فى جهود أعضائه ، وإلى ضعف ثمرات تلك الجهود ، ثم مضت تناقش مكان اللغة من الأمة وتنبه إلى أن اللغة هى الأمة بعينها، فهى كما تشخص تاريخ الأمة وعلومها وعباداتها تشخص الأمة بنفسها ، وذلك فضلا عن أنها هى مجمع ألفتها والوصلة الحسية بين آحادهاوجماعاتها .(البيان ، ج٦ ،السنةالأولى،أغسطس (آب) ١٨٩٧) . ونبهت المجلة فى مقالاتها تلك إلى مزية الألفاظ المحدثة ، وبيان مكان المولدين من اللغة ، وأنه لايستقيم أن يمنع المتأخر مما أبيح للمتقدم لأن لكل عصر لغته ، كما أن لكل عصر أهله . وفصلت المجلة القول فى طرق الوضع من ارتجال واشتقاق ومجاز (البيان ، ج ٩ ، أكتوبر (تشرين الأول) ج ١١ نوفمبر (تشرين الثانى) ١٨٩٧) .

هذه كانت الصورة المجمعية الأولى فى تاريخ مصر الحديث . وقبل أن ننتقل إلى المحاولات التالية فى إنشاء المجامع العربية نشير إلى ندوة علمية هامة عقدت فى « نادى دار العلوم » بالقاهرة سنة ١٩٠٨ ، وكان الداعى إليها « حفنى ناصف» : ذلك أن بعض الصحف فى مصر فى العقد الأول من القرن الحاضر أكثرت من تشجيع المجددين على المناداة بجواز استعمال الأسماء الأجنبية للمستحدثات «كالفونوجراف والتليفون والتلجراف) فى اللغة العربية بحجة أنه لاوجود فى الفصحى القديمة لما يقابل هذه المخترعات الجديدة . فلما خشى « حفنى ناصف » تفشى هذه الفكرة دعا أعضاء « نادى دار العلوم » للاجتماع ، وفتح الباب أسبوعين متواليين لإلقاء محاضرات ليلية احتدم فيها

الجدل ، وكان من البحوث التى ألقيت فيها بحث للشيخ « محمد الخضرى » بعنوان « تعريب الأسماء الأعجمية » ، وآخر « لأحمد فتحى (باشا) زغلول » بعنوان « ما هى اللغة » ، وثالث للشيخ « طنطاوى جوهرى » فى موضوع « العامية والفصيحة » (نشرت فى المقتطف ، ج ٣ ، مجلد ٣٣ ، مارس (آذار) ١٩٠٨ ، ص ٢١٨ — ٢٢٦ — وج ٤ ، مجلد ٣٣ ، ابريل (نيسان) ١٩٠٨ ، ص ٣١٣ — ٣١٧ وص ٣١٨ — ٣١٩) وبحث لحفنى ناصف بعنوان « الأسماء العربية لمحدثات الحضارة المدنية » (مطبعة جامعة القاهرة ١٩٥٦) . فأما « الخضرى » فقد ذهب فى بحثه إلى لزوم السير فى طريق التعريب ، وانتهى فى النتيجة إلى اقتراح تكوين مجمع يعهد إليه التعريب ، ويكون اختصاصه محصورا فى دائرة أسماء الأجناس والأعلام ، ويكون له سجل تقيد فيه الكلمات الموضوعة ، وازاءها مسمياتها موضحة تمام التوضيح ، وأحسن ماكان ذلك بالرسم ، ويكتب أمامها التاريخ الذى وضعت فيه ، وإذا وضع قاموس ألحقت به تلك الكلمات ومعها تاريخ تعريبها ، لكى يبقى الأصل محفوظا على حدة ، والمعرب وحده على حدة .

وتناول « فتحى زغلول » فى بحثه التصورات الرئيسية فى موضوع اللغة ، وقارن الموقف فى لغتنا وفى اللغات الأوربية من حيث الاستعارة من لغات أخرى ، وطالب أن يكون مباحا لنا ماكان مباحا لآبائنا من قبل ، ونددد بمن يريد أن يلزمنا بالبقاء على القديم ويحكم علينا بالجمود واعتقال اللسان ودعا إلى العناية باللغة وإصلاحها ، واستخدام الاشتقاق المعقول والترجمة الصحيحة والتعريب عند الضرورة . وبحث الشيخ « طنطاوى جوهرى » قضية العامية والفصحى وذهب إلى أن العامية المصرية فى جملتها عربية صحيحة ، وأن المحرف منها قليل وكذلك الدخيل ، واستشهد لما يقول بكتب متن اللغة وبالقرآن والحديث وأشعار العرب الموثوق بعربيتهم ، وأشار بجمع قاموس يشمل كل الألفاظ العامية الصحيحة .

* * *

وكان بحث حفنى ناصف[1] شاملا ، فقد تناول المراحل التى مرت بها تنقيح اللغة العربية منذ القدم ، وتحدث عن الدخيل ، وعن الثنائية اللغوية التى أصيب بها العالم العربى ، والحلول التى اقترحت للتغلب عليها . ثم انتقل إلى الكلام عن اللغة الفصحى واجزائها لتحديد محل النزاع بين أنصار التعريب وخصومه ، حتى انتهى إلى اسم الجنس الذى لم تستعمل له العرب لفظا ، وهو المحور الحقيقى للقضية المتنازع عليها فاقترح رأيا فيه ، وكان اقتراحه أساس القرار الذى وافق عليه المؤتمرون جميعا وهو :

« يبحث فى اللغة العربية عن أسماء للمسميات الحديثة بأى طريق من الطرق الجائزة لغة ، فإذا لم يتيسر ذلك بعد البحث الشديد يستعار اللفظ الأعجمى بعد صقله ووضعه على مناهج اللغة العربية ، ويستعمل فى اللغة الفصحى بعد أن يعتمده المجمع اللغوى الذى سيؤلف لهذا الغرض » .

° ° °

وجرت فى مصر — قرب نهاية العقد الثانى من القرن الحاضر محاولة ثانية لإنشاء مجمع لغوى — وكان نشاط المجمع الأول قد انقطع منذ سنوات — وقد تولى « أحمد لطفى السيد » مدير دار الكتب السلطانية آنذاك — الدعوة إلى الفكرة . وفى أوائل يوليو (تموز) من سنة ١٩١٧ ألف المجمع ونشر برنامجه وهيئة أعضائه وحدد غرضه بأنه :

« خدمة اللغة العربية بوضع معجم واف بحاجة الزمن يشمل اصطلاحات العلوم والفنون والصناعات ، فيزيد فى اللغة للضرورة ، ويراعى فى الزيادة دفع الحرج ، ويستبدل بالكلمة الأعجمية — التى لم تعرب من قبل — غيرها من الألفاظ العربية الموضوعة للدلالة على معناها ، فإذا لم يهتد المجمع إلى كلمة

---

(١) راجع « حفنى ناصف كاتباً وباحثاً » . محمد خلف الله أحمد (مطبوعات معهد الدراسات العربية العالية ١٩٦٠/١٩٦١) .

عربية وضع كلمة عربية للدلالة عليها ، أو أقرّ الكلمة العامية ، أو عرب الكلمة الأعجمية ، ويكون وضع الكلمات بطريق المجاز أو الاشتقاق أو النحت ويفضل الأخذ من الكلمات المهجورة تقليلا لاشتراك المستعمل ».

وتحدثنا مجلة الهلال (فى عددها السادس والعشرين من سنة ١٩١٨ ، أى بعد حوالى سنة من انشاء ذلك المجمع) أنه لم يجتمع إلا بضع مرات ، وأن أعضاءه اختلفوا فى منهج العمل : ففريق محافظ لا يرضى مجاوزة الحد الذى وصل إليه القاموس وروى عن العرب ، والآخر حر يرى التجاوز عن القياس والقاموس .

* * *

وتسير حركة المجامع سيرها فينشأ المجمع العلمى العربى بدمشق سنة ١٩١٩ ويجعل فى مقدمة أهدافه البحث فى علوم اللغة العربية وآدابها والحرص على سلامتها ، والبحث فى تاريخ العرب وآثارهم وعلومهم ومدنيتهم ، والعناية بنشر كتب التراث العربى . وهذا المجمع مستمر فى نشاطه ، وله مجلة تنشر فيها البحوث اللغوية والأدبية والنقدية ، ومنذ سنة ١٩٦١ أصبح يعرف باسم « مجمع اللغة العربية » بدمشق ، وقد احتفل فى سنة ١٩٦٩ بعيده الذهبى وشاركت فى هذا الاحتفال مجامع اللغة والهيئات العلمية فى العالم العربى . وفى سنة ١٩٣١ جدد إنشاء مجمع اللغة العربية بالقاهرة ، وبدأ انعقاده سنة ١٩٣٤ ، وعمل منذ السنة الأولى من حياته على تحقيق الأغراض التى أنشىء من أجلها ، وأهمها المحافظة على سلامة اللغة ، وجعلها وافية بمطالب العلوم والفنون فى تقدمها ، ملائمة لحاجات الحياة فى العصر الحاضر . وقد اتسعت أعمال المجمع سنة بعد أخرى وتنوعت نواحى نشاطه : فمنها القرارات العلمية[1] التى تنصب على ظواهر اللغة كالقياس والتضمين والنحت والتوليد والتعريب

---

(١) أخرج المجمع مجموعة القرارات العلمية (سنة ١٩٦٣) ، ثم تابع نشر قراراته العلمية سنة ١٩٦٨ فى كتاب آخر بعنوان « أصول اللغة » ، وكلا الكتابين بإشراف وتعليق محمد خلف الله أحمد ومحمد شوقى أمين .

وترجمة المصطلحات وما إليها — وقد أخرجها فى كتاب سنة ١٩٦٢ ، ومنها البحوث التى يلقيها أعضاء المجمع فى مجلسه الذى ينعقد كل أسبوع — والذى تفيه اللجان المختلفة بأعمالها وتوصياتها — أو فى مؤتمره السنوى الذى يحضره — مع أعضائه المصريين — الأعضاء العاملون من البلاد العربية ، وهى تعد للنشر فى مجلة المجمع وفى كتاب مؤتمره السنوى . ومن نواحى نشاطه المصطلحات العلمية والفنية وألفاظ الحضارة التى تقترحها لجان المجمع ثم تعرض على مجلسه ثم على مؤتمره السنوى لإقرارها . ومنها المشروعات المختلفة التى وجد الكثير منها طريقه إلى التنفيذ : كتيسير النحو والصرف والكتابة العربية ، واختصار حروف الطباعة ، وتشجيع الإنتاج اللغوى والأدبى ، ووضع المعاجم المختلفة : كالمعجم الكبير ، والمعجم الوسيط ، ومعجم ألفاظ القرآن ، وقاموس العلوم الاجتماعية ، ومصطلحات المؤتمرات الدولية وغيرها .

وفى سنة ١٩٤٧ أسس المجمع العلمى العراقى لتحقيق الأغراض المشار إليها فى مجمع دمشق . وله مجلة تتضمن جهود أعضائه وغيرهم من العلماء فى خدمة اللغة والأدب . وقد نشر حتى الآن عشرات الكتب بين مؤلف ومحقق . كما ساعد كثيراً من المؤلفين والباحثين على نشر آثارهم ، وله خزانة كتب حافلة بألوف المراجع والمصادر . وقد صدر فى بغداد سنة ١٩٦٥ كتاب عن نشأة المجمع وأعضائه وأعماله وكان ذلك بمناسبة انعقاد دورة مشتركة غير عادية لمؤتمر مجمع القاهرة بدعوة من المجمع العلمى العراقى .

وفى سنة ١٩٦١ عقد فى الرباط مؤتمر عربى للتعريب انبثق عنه مكتب دائم لتنسيق التعريب ظل يتبع جامعة الدول العربية إلى أن ضم للمنظمة العربية للتربية ، الثقافة والعلوم ، وتصدر عن هذا المكتب منذ سنة ١٩٦٤ مجلة باسم « اللسان العربى » قصد بها أن تكون سجلا لجميع الأعمال المنجزة والمشاريع المعتزمة فى حقل التعريب ، ومرآة للجهود المبذولة من أجل تجديد اللغة العربية وتطويرها .

هذه أهم الهيئات التى تعمل الآن فى الميدان اللغوى . وهناك إلى جانبها عديد من الاتحادات العلمية والروابط الأدبية ، ومجالس العلوم والآداب ، وأقسام الدراسات الجامعية ومعاهد الدراسات العربية وغيرها من الجمعيات والأفراد الذين يقومون بنصيبهم فى خدمة لغة القرآن وإحياء تراثها .

وبعد فإن النهضة التى حققتها اللغة العربية فى تطورها الحديث[1] ، والجهود التى بذلها علماؤها ومفكروها فى العصر الحاضر فى المحافظة على سلامة اللغة وتجديدها تبرهن أن العرب فى حديثهم — كما كانوا فى قديمهم — أمة حية متجددة تعتز بكيانها ومقومات شخصيتها ، وتحرص على أن تأخذ مكانها فى ركب التقدم الحضارى ، وتشارك بعبقريتها فى رقى الفكر الإنسانى.

* * *

(١) راجع : « مستقبل الفصحى » محمد خلف الله أحمد (نشر فى العدد الأول من مجلة معهد البحوث والدراسات العربية عام ١٩٦٩) .